

عائد من الظلام

بقلم / أحلام النصر

قِصَّةٌ مَثَلٌ لَوَاحِدَةٍ مِنْ جَرَائِمِ الصَّليب

أوالحق



عائد من الظلام!

- الحلقة الثانية -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة:

عائد من الظلام!

- الحلقة الثانية -

#بقلم: #أحلام-النصر

(قصة مثل لواحدة من جرائم الصليب)

#قناة-مؤسسة-أوار-الحق



كان القس "مارك" وسط طلابه وأشياؤه الخاصة، يبدو رابط الجأش متماسكاً، ويحاول المحافظة على مظهره الجدّي هذا، غير أنه في الحقيقة كان يمسك بجبلٍ معنوي، لو أفلته أو غفل عنه لحظة: لتناثرت أجزاء تماسكه المتهالكة التي تعب في ربط بعضها ببعض!

وانتهت نوبته في الإشراف أخيراً، فقصد غرفته وهو يتنهد، مطلقاً العنانَ لانهياره، وبينما كان منكس الرأس؛ استأذن عليه "ألبرت"، وأخبره باستيقاظ "مادو"، فتوجه "مارك" من فوره إلى حيث كان يرقد، وطلب من الجميع أن يخرجوا لينفرد به.

وما أن أغلق الباب خلف آخر خارج، حتى اكتست عينا "مارك" بالغيظ والغضب، بينما كان "مادو" المذهول يحاول تجنّب نظراته الشرسة، وهتف "مارك":

- الآن وبكل جدية أريد أن أفهم ما خطبك؟! ما الذي يصيبك؟!!

ازدرد "مادو" ريقه وبصعوبة وقال:

- صدقني يا سيدي؛ أنا لا أعرف لماذا أعجز في كل مرة عن هذا الطلب بالذات! أرى في عيونهم براءة غريبة، يتجاوب معها صوتٌ داخلي!

زفر "مارك" بملل، ثم قال:

- ولم تستطع تجاهلَ هذا السُّخف من أجلي؟!

قال "مادو":

- حاولتُ كثيرًا.

صرخ "مارك":

- والنتيجة؟!

- هذه الإغماءاتُ التي تصيبني!

نظر "مارك" في عيني "مادو" بغضبٍ شديد، وأمسك بياقة قميصه، وهو يهمس بصوت كالفحيح:

- اسمع يا ولد! لقد كنتَ مجردَ متشردٍ بائس، كنتَ نكرة! كنتَ حشرة! أنا احتويتك وعلمتك وربيتك، وأحاول اليوم أن تترقى في سلّم المجد لترضى عنك الكنيسة! وكل ما أناله منك أن تحاول إحراجي!!؟

قال "مادو" المرعوب:

- صدقني إنني لا أتعتمد هذا يا سيدي! لكن.. لكنني أفقد السيطرة على نفسي!

رماه "مارك" بعنف تاركًا ياقته، وهو يصرخ:

- أنا الذي سأفقد السيطرة على نفسي بسببك!! أنت.. أنت كنتَ المفضل عندي
تصنع بي هذا؟!!

- لكن؛ أنا..

أشاح "مارك" بيده هاتفًا:

- صه! لا أريد أية أعذار! سيكون أمامك عدد محدود من الفرص قبل الامتحان
الأخير، وسيحضره رجال الكنيسة.

وتابع وهو يشير بسبابته في وجه "مادو" مهددًا:

- وإنني أقسم؛ إذا أخرجتني أمامهم فلن أرحمك أبدًا!

وتلاقت عيناه الغاضبتين في توعّد أخير مع عيني "مادو" المذهولتين الخائفتين، ثم
خرج "مارك" صافقًا الباب خلفه بعنف.

حملق "مادو" في السقف مفكراً في حل لهذه المشكلة؛ إنه لا يعرف لماذا يخذل القسّ "مارك" في كل مرة، رغم حرصه على عدم إغضابه.

هل هو يجبه؟! سؤال غريب؛ لأن الأغرب منه أنه بلا جواب، ف "مادو" لا يشعر في هذا المكان بأي شعور سوى السُّحْق، هو يعرف أنه في مستوى دون زملائه وإن تفوق عليهم في الحفظ والدراسة، وهم كلهم يحتقرونه كما يحتقرون كل "شيء خاص" للقساوسة، وحسبُه في هذا أن ألقابه عندهم لا تخرج عن "الخنفسة السوداء"، "الصرصار المذعور"، وحتى إن أراد أحدهم امتداحه في شيء؛ فأقصى ما يجده من عبارة تحبّية هي: "إنها من اللحظات النادرة التي تتحوّل فيها الخنفسة السوداء إلى شراب من الشوكولا!"، وقد رأى مرة كيف كان مصيرُ "شيء خاص" انفجر من كَمِّ الإهانات الكبير ضده، فأتاح القس الخبيث "ألفرد" للطلاب أن يبينوه علانية أمام الجميع وبإشرافه؛ مما جعل "مادو" الضعيف يأخذ العبرة، ويصمم أن يتجاهل كل إهانة ويقابلها بالصمت والرأس المنحني.

بل حتى القس "مارك" المشرف عليه؛ لا يعتبره سوى آلة للحفظ والعمل؛ ليتفاخر بإنجازاته من خلالها، هذا فقط، لا شيء مما يخص الاهتمام أو الرعاية؛ إذ لا وجود أساساً في هذا المكان الثلجي لأية عاطفة حانية.

لا، رغبته في طاعة القس "مارك" لا علاقة لها بالود، إنه لا يريد إغضابه وكفى، لقد وُجد في هذا المكان لطاعة القس "مارك"، وهذا يستحق أن يحاول الضغط على نفسه قليلاً بعد؛ عساه يستطيع النجاح في أداء المهمة هذه المرة.

وهدر صوت قوي شرير:

- هل أنت جاهز الآن يا "مادو"؟!

فأجابه صوت "مادو" المتعثر الخائف:

- نعم، بالأحرى.. أحاول أن أكون.. جاهزاً!

وهنا اقترب "مارك" من "مادو"، وهمس في أذنه بصوت حاول أن يكون لطيفاً:

- هيا يا "مادو"، إنها لحظة صغيرة من عمر الزمن وينتهي فيها كل شيء، أنا أرجوك أن تنجح!! ضغطة صغيرة لن تضر أحداً!

علق "مادو" متلعثماً:

- لن تضر أحداً.. ولكنها.. ستُنتهي.. حياة.. هذا البائس!

صرخ "مارك":

- "مادو"! لا تستفزني أكثر!

ويقبض على يده بعنف، ويوجهه نحو الطفل، ويصرخ:

- هيا!!

ويحاول "مادو" استجماعَ شجاعته، ووقفَ ارتعاشة يده، وينظر في عيني الطفل المدعور، الذي يفترض أنه ضحيته، ثم يلتفت إلى "مارك" ويهتف متوسلاً:

- لا أستطيع يا سيدي! لماذا لا تحوِّله إلى شيء خاص؟!

- احرص! لست أنت من يحدد! هيا! هيا يا "مادو"!

ولكن "مادو" ترتخي أنامله، وتسقط البندقية من يده، ثم يسقط على إثرها مغشياً عليه، وسط صرخات "مارك" الغاضبة، وابتسامة "ألفرد" الساخرة، الذي يستغل الموقف كعادته، ويشير بيده إلى أحد أشياءه الخاصة؛ فيتحرك هذا بآلية باردة، وينجز المهمة التي عجز عنها "مادو"، ويزداد "مارك" ذهولاً وغضباً، فيما يزداد "ألفرد" سخريّة وشماتة.

(٤)

بدا القس "مارك" عصبيًا جدًّا، ليس اليوم فقط، بل هو كذلك منذ فترة، وكلما اقترب موعدُ معاناةِ نتائجِ عملهم الطويل وتقويمِها: ازداد عصبية وقلقًا، ذلك الموعد الذي كان يرتقبه بشوق وحماس، واليوم يخشاه ويتمنى ألا تطوي الأيامُ المسافةَ بينه وبينه.

- كل ذلك بسبب "مادو"! آه من هذا الصرصار!!

- هه! تمالك أعصابك "مارك"! هل صرتَ تكلم نفسك أخيرًا؟!

أفاق "مارك" من خواطره فزعًا، والتفتَ إلى مقاطِعِهِ؛ فإذا به القس "ألفرد"، ذلك العجوز ذو العينين الثلجيتين والمظهر البارد المتعجرف، والثقة التي يصاحبها كثيرٌ من الاستخفاف.

أشاح "مارك" بوجهه عنه، وقال:

- ماذا تريد وأنت ترفض مساعدتي؟!

اقترَب "ألفرد" من "مارك"، وربّت على كتفه في مواساة ساحرة، ثم قال:
- هيه! إذا فهل ما زال صرصارك الأسود فاشلاً بعد التمرين الأخير؟!

زفر "مارك" بضيق، وقال:

- بالأحرى: إنه لم ينجح أبداً إذا كان هذا يسعدك.

اختفت ابتسامة "ألفرد"، وظهرت القسوة المخيفة في عينيه وهو يهمس كالأفعى:
- أنا لا يسعدني أبداً أن يتمرد صرصار على إرادة الصليب، لا سيما إن تعلق هذا
بشيء من "الأشياء الخاصة"؛ أنت تعرف أن القيادة تبتهج بنجاح شيء خاص في
هذه الأمور أكثر من نجاح الطلاب العاديين.

تمتم "مارك" بملل:

- إنني أعرف هذا جيداً، وكلانا يعرف أصل "مادو" ولمن ينتمي.

والتفت "مارك" إلى "ألفرد" متابعا:

- إلا أن ما أستغربه هو جمعك بين هذا الفكر وبين رفضك لمساعدتي! في النهاية إذا
نجحتُ: فستعلو إرادة الصليب التي تقول إنها تهمك!

قهقهه "ألفرد" بصخب وقال:

- يا عزيزي؛ لا يمكنك أن تربط بين إرادة الصليب ونجاحك؛ إذ يمكن تحصيل إرادة الصليب عبر نجاحي أنا!

نقل "مارك" نظره في عيني زميله؛ عساه يفهم قصده، غير أن أسوار الجليد القاسي حالت دون ذلك، وهنا تنهد "مارك" يائساً وقال:

- أفصح عن مقصدك يا "ألفرد".

قال "ألفرد" بسرعة وحزم:

- تنازل لي عن "مادو" يا "مارك"!

هتف "مارك" متفاجئاً:

- ماذا تعني يا "ألفرد"؟!

قال "ألفرد" ساخراً:

- ما يعنيه أي قائل لهذه العبارة يا عبقري! نذهب إلى القيادة، وتوقع تنازلاً رسمياً لي عن "مادو" ليصبح لي أنا؛ شيئاً من أشيائي الخاصة!

واشتد ذهول "مارك"، ثم أفق من صدمته، وصرخ غاضباً، وهو يشير نحو "ألفرد"
بإتهام:

- أنت.. أنت.. تحاول استغلال الموقف لصالحك! لديك ما يكفيك من الأشياء
الخاصة، وما تزال تريد "مادو" أيضاً؟! هل تسخر مني؟!

دمدم "ألفرد" باشمئزاز:

- إذا فهل كنت تتوقع مساعدة مجانية ترفع بها فشلك، وتحفظ من خلالها ماء
وجهك أمام القيادة؟!

وتابع وهو ينظر في عينيه بحقد:

- إنها فرصتي كي أحطم غرورك يا "مارك"! كنت دائماً التباهي بذاكرتك وتفوقك
النظري، وها أنت ذا تفشل عملياً! وفي أهم امتحان هو خلاصة كل ما نصنع!!

رد "مارك" بضعف محاولاً التماسك:

- ولكنك قلت إنك تكره ترمد أحدهم على الصليب!

قال "ألفرد" دون اكتراث:

- دعك من الشعارات والخطابات، أقصى ما في الأمر أنهم سيقتلونهم أو يسحبونه
منك عندما تفشل ويسلمونه إلى غيرك، وأنا بعرضي هذا أجنبك فضيحة مدوية
ستهمز مكانتك وتهدد مركزك.

ونظر إليه بنخبث وقال:

- ولأنها محض شعارات؛ فأنت أيضًا تربط بين الصليب وبين نجاحك الشخصي!

- وأنت تريد التسلق على فشلي وإهانتني!

- الحياة فرص يا صاحبي! وأنت بأمانة: منافسي الوحيد على المركز القادم!

كاد الغيظ يقتل "مارك"؛ ففعلًا يكاد يكون هو و"ألفرد" يتساويان، ولهذا فكلُّ منهما يحاول تحطيم الآخر والتفوق عليه.

وتابع "ألفرد" متفلسفًا:

- لا توهمني بأنك لو كنت مكاني فلن تصنع الشيء نفسه! ثم إن فكرتك في مسح ذاكرة "مادو" كانت بدائية للغاية!! لا يمكنك أن تنكر هذا، كما لا يمكنك إنكار تجاهلك لنصائح من سبقوك في هذا المجال!

قال "مارك" معترضًا:

- وما علاقة هذا بما نحن بصدده الآن؟!

وضع "ألفرد" ساقًا فوق أخرى، وقال بثقة:

- علاقته هو حماقتك الخالصة.

جلس "مارك" بجانب زميله حزيناً، وقال:

- كنت أحاول الحصولَ على النتيجة بأسرع وأقل ما يمكن من وقت وتكلفة، لا تنسَ أننا كنا نستلم الأطفال جاهزين لنعلمهم على خدمتنا وخدمة جيشنا، وطالما نجحتُ في ذلك..

قاطعهُ "ألفرد" بتعجرف:

- ونجحتُ أنا أيضاً.

تابع "مارك" دون اهتمام بمقاطعته:

- ولكن "مادو" كان التجربة الأولى لي لمحاولة مسح الذاكرة، وأنت ترى أنه تفوق على بقية زملائه في الحفظ والدراسة...

وتابع متنهّداً:

- فقط هذا الأمر! فقط هذا الأمر!

هتف "ألفرد" بنفاد صبر:

- وهو أهم أمر!! "مادو" غبي مثلك تماماً؛ كلاهما يتظاهر بأنه كتابٌ بشريّ، غير أن الكتاب لا يمكنه أن يقتل دون قلب جامد وإحساس بارد! أيها الفاشل!

هل تذكر كيف سخرت من تجربتي أنا؟! وقد أثبتت نجاحي فيها، أما أنت فمن أول تجربة فشلت! هه! ضربة عصا على مؤخرة الرأس! يا للسخف!!

قال "مارك" مدافعاً:

- ولكنه فعلاً نسي يا "ألفرد"؛ نسي اسمه وأهله ودينه وكل شيء، وفي المقابل اجتهد وتفوق، فقط في هذا الأمر! فقط في هذا الأمر!

كرر "ألفرد":

- الذي هو أهم أمر!

قال "مارك" بملل:

- لقد حفظتها! وأعرفها قبل أن تذكرها!

قال "ألفرد":

- أنت لم تستمع لنصح أحد، ولم تستفد من تجارب إخواننا في صربيا على أطفال المسلمين في البوسنة؛ منهم من ذبحوا أهلهم أمام عينيه⁽¹⁾، هكذا لم يعد عقله الباطن أصلاً يجرؤ على الذكرى، بل أسدل عليها ستاراً كثيفاً، مما ساعد على تغيير شخصيته، ومنهم من عرض الأطفال لتعذيب شرس حتى صاروا عجينة بين يديه⁽¹⁾، ناهيك

عن العقارات والأدوية والأساليب المتطورة، وأنت تركت كل هذا واستخدمت عصا هي أكثر بؤساً منك؟!

لم يجب "مارك"؛ كان قد شبك يديه وهو يصغي لكلام زميله، وبعد فترة صمت سأله بأمل:

- ألن تساعدني؟!

أجاب "ألفرد" بنخب:

- نعم لن أساعدك يا صديقي؛ دع غرورك وفلسفتك تنفعانك، انظر إلى شخصية "مادو" جيداً: أبلهٌ مرتعش، يكاد لا يكون موجوداً، كُتاب بالمعنى الحرفي! وفوق هذا يخرج أستاذَه في أهم امتحان!

وتابع متفاخراً:

- بينما طلابي جميعهم كالخاتم في إصبعي، ليسوا كتباً بل آلات حقيقية!

- "ألفرد" ساعدني!

- تنازل لي عنه وسأعيد ترييته!!

وحدّق كلّ منهما في الآخر، وقبل أن يعودا إلى الشجار مجدداً؛ فوجئا بأحد الطلاب الشاب يقترب منهما مهرولاً وهو يقول:

- أبت! أبت! إن "مادو" يهلوس ويتكلم في إغمائه!

فهرع الاثنان فوراً بفضول؛ لعل شيئاً ينجلي من غوامض هذا اللغز.

حاشية:

(1) حقيقة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

انتهت الحلقة الثانية

...يتبع

